الفصل الثانى

فؤاد زكريا.. والفلسفة فى حياتنا اليومية

استطاع الدكتور فؤاد زكريا أن ينزل الفلسفة من عليائها لتلتحم بحياتنا اليومية. ولذا فقد اجتذب الرجل اهتمام فئات مختلفة، وقطاعات متباينة فى المجتمع العلمى العربىْ والمثقف على حد سواء. فهو برغم اشتغاله بالفلسفة. التى تعتبر من العلوم العقلية العسيرة، إلا أنه لم ينزو أو ينعزل فى برج عاجى بعيدا عن حركة الفكر بمفهومها الواسع والخلاق، مقتصرا على البحوث التى تؤدى به إلى الترقية من درجة إلى درجة أعلى فى السلم الوظيفى، شأن الكثيرين غيره ممن تخصصوا فيها، ودفنوا أنفسهم فى هذا الفرع من العلوم الإنسانية، ولكنه شارك بفعالية فى الحياة الثقافية والفكرية فى بلده وعالمه العربى، فقد رأس تحرير دوريتين فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى وهما: مجلة «الفكر المعاصر» وسلسلة «تراث الإنسانية» الشهيرة، التى أشرف على تحريرها الأستاذ العقاد فى بداية صدورها، كما ظل مستشارا لتحرير سلسلة كتاب «عالم المعرفة» التى تصدرها دولة الكويت الشقيقة، منذ أول صدورها، وحتى وفاته رحمه الله.

نشأته

لا نعرف عن نشأة الدكتور زكريا الأولى إلا ما ذكره هو نفسه باختصار شديد، في نهاية بعض كتبه للتعريف به، حيث ولد في ثغرنا الشهير «بورسعيد» في ديسمبر من عام ١٩٢٧، ويبدو أنه قد تلقى تعليمه قبل الجامعي بها، ثم انتقل إلى مدينة القاهرة، ليتخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٩، أي وهو دون الثانية والعشرين من عمره بعدة شهور. وقد نال الرجل درجتي الماجستير (١٩٥٢) والدكتوراه (١٩٥٦) في الفلسفة من جامعة عين شمس التي تدرج في وظائفه فيها، حيث عمل مدرسا فأستاذا مساعدا وأخيرا أستاذا للفلسفة ورئيسا لقسمها في كلية الآداب.

وواضح من التواريخ السابقة في مشواره الدراسي، السرعة الهائلة التي لم نعهدها بهذا الشكل المتواتر بالنسبة لكثيرين غيره؛ مما يدل على تفوق الرجل ونجاحه المطرد. الذي مكنه من تجاوز المراحل التعليمية والعلمية بهذا التوفيق والتفوق في وقت قياسي، في مرحلتي الليسانس والدراسات العليا.

اهتمامه بالعلم وفلسفته

لم يكن اهتمام الدكتور زكريا بالعلم وفلسفته محض صدفة، ولكنه كان اتجاها يتلاءم ويتماشى مع طبيعته المنجذبة نحو الموضوعات التي تلتحم بمشكلات المجتمع وقضاياه المُلِحَّة. فقد استشعر الرجل أننا أحوج

ما نكـون إلى الاهتمام بالعلم ومناهجه، فقـد تخلفنا بما فيه الكفاية، ولابد من تعويـض الكثير مما فاتنا، ومحاولة اللحـاق بركب التقدم، ولن يتأتى ذلك إلا بالعلم والتفكير العلمى، ومن ثم اهتم به وبفلسفته، فترجم وألف فى ذلك بعض الكتب الرصينة.

ففى عام ١٩٦٨ قام بترجمة كتاب هانز رايشنباخ Hans Reichenbach. وهو أحد أقطاب فلاسفة العلم فى النصف الأول من القرن العشرين. أما كتابه الذى نعنيه هنا فهو بعنوان: «The Rise of Scientific Philosophy»، أو كمـا ترجمه الدكتور زكريا: «نشأة الفلسـفة العلمية». وقد جاءت ترجمة هـذا الكتاب ردا على أطراف معركـة، دارت رحاها فى مجلاتنا الثقافية بل وفـى جرائدنا اليومية أحيانا كما قال الدكتور زكريا نفسـه، وعلى الرغم من أنـه لم يكن طرفا فيها، فقد آثر أن يقدم وجهة نظره فى موضوع النزاع، على نحو عملى أوسـع وأكثر شمـولا، وذلك بترجمة هذا الكتـاب، لعل الاطلاع عليـه يفيد جمهرة المثقفين فى تبيُّـين بعض معالم المذهب الذى يتحدثون عنه ويتناقشـون بصدده؛ إذ إنه - كما يقول - ليس من أنصار مناقشـة المسـائل الفلسفية دون إلمام كاف بأبعادها الحقيقية.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد ناقش أيضا طائفة من الموضوعات العلمية والرياضية، التى تشـتبك بشكل مباشر أو غير مباشر بالمسائل والمعضلات الفلسفية كطبيعة الهندسة، وكُنْه الزمان، وقوانين الطبيعة، والتطور، إلى غير ذلك من موضوعات.

وإذا كان هذا الكتاب يهم المتخصصين فى الفلسفة، سواء من الناحية التاريخية أم من خلال علاقة الفلسفة بالعلم، أم حتى توظيف المعطيات العلمية فى خدمة الفلسفة، فإنه يهم أيضا - وبالدرجة الأولى - المشتغلين بالعلم والبحث العلمى، وهذا يقودنا لمؤلفه المهم، وهو كتاب «التفكير العلمى»؛ إذ إن الرجل كان معنيا على وجه الخصوص بالموضوعات الفلسفية التى تمس المجتمع وتتلاحم معه وتخدم قضاياه. وهل هناك أكثر أهمية للمجتمع من قيمة التفكير العلمى - وتحكيم العقل، سواء للعلماء أم حتى للأفراد العاديين؟!

مما تقدم، يتبين لنا - جليا - اهتمام الدكتور زكريا بالعلم وقضاياه وفلسفته، وطريقة التفكير العلمية، التى لم يقتصر اهتمامه بتوضيحها وإبرازها للعلماء والمشتغلين بالعلم بشكل عام فحسب، ولكن أيضا للرجل العادى. كما ذكر فى بعض كتبه أو مترجماته الأخرى. إلا أن ذلك قد تأكد لنا أيضا على المحك النقدى والمجتمعى، حينما تعرض الرجل لنقد الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله. وعلى الرغم من إجلالنا وبالغ تقديرنا لهذا الرجل الذى كان بمثابة ظاهرة لا تتكرر كثيرا فى حقل الدعوة الإسلامية فى عصرنا الحديث، إلا أن الرجل - فى اجتهاده - كما يصيب كثيرا فقد يخطئ فى بعض الأحيان، وله الأجر والثواب إن شاء الله تعالى. فالعصمة - كما هو معروف - للأنبياء وحدهم.

فحينما يقول الشيخ فى «خواطره حول القرآن الكريم» - ذلك البرنامج التليفزيونى والإذاعى الشهير، والذى ارتبطت جماهيريته بساحة واسعة الانتشار ليس بأقاليم مصر فقط، ولكن على مستوى العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه - «إن علوم الفضاء وتكنولوجيا الأقمار الصناعية كلها لا تساوى شيئا، وأن الإنسان الذى اخترع «ورقة الكلينكس» أو عود الكبريت قد أفاد البشرية بأكثر مما أفادها ذلك الذى اخترع صاروخا يصل إلى القمر»! عند هذا كان لابد لمفكر فى قامة الدكتور فؤاد زكريا أن يقول شيئا.

وبالفعل فقد علق الدكتور زكريا على ذلك بقوله: هنا لا يملك المرء إلا أن يتساءل: لمصلحة من يقال هذا الكلام فى بلاد تكافح من أجل اللحاق بركب العلم والتكنولوجيا، وتسبق الزمن لكى تأخذ لنفسها مكانا فى عالم يزداد تحكم المعرفة العلمية فيه يوما بعد يوم؟ وماذا يكون وقع هذه الكلمات على أسماع الأجيال الشابة الجديدة، التى تعيش أعداد كبيرة منها فى أسَر مبهورة بالشيخ ومُتقبِّلة لكل حرف يقوله؟ ألا يدرى الشيخ أن مُستقبلنا مرهون بالعلم، بكشف طاقة بديلة عن البترول قبل أن ينفد، وابتكار طرق جديدة لإنتاج الغذاء نحقق به الاكتفاء لأنفسنا ونحمى أبناءنا من الجوع، والوصول إلى أساليب اقتصادية لبناء المساكن وشق الطرق وتعمير المدن والصحارى؟

وليس لنا من تعليق بعد هذا، إلا الاعتراف بأن لرحلات الفضاء فضلا كبيرا فى تطور علوم المواد، ومن ثَمَّ حل معضلات علمية كثيرة

فـى مجال علوم الفيزياء والكيمياء، بل وتطـور هائل فى مجال العلوم البيولوجية والطبية، فضلا عن علوم الرياضيات وعلوم الحاسبات والفلك والأرصاد الجوية وغير ذلك من علوم.

العقل والتفكير العلمى فى حياتنا

مـن أكثر ما جذبنى لهـذا المفكر العملاق أنه يعلـى من قيمة العقل والتفكير العلمى المنظم، ويجعل من العقل مرجعا وأساسا، ليس فقط فى طريقة تفكيرنا ولكن أيضا لضبط كثير من سـلوكنا، بحيث يتسق الفكر مع السلوك اتساقا تنتفى معه حالة «الشيزوفرينيا» أو الفصام والازدواج، التى يعانى منها كثير من المتعلمين تعليما عاليا، ولم يستثن منهم حتى أولئك الحاصلين على شهادات الماجستير والدكتوراه؛ ولذا فإنه يؤكد علـى هذا المعنى بقولـه: إن هذك كثيرا من المتعلمـين الحاصلين على أعلى الشـهادات الجامعية وربما أيضا على درجة الأسـتاذية، ويقفون طـوال يومهم فى المعامل والمختبرات، وحينما يزاولون حياتهم العادية اليوميـة تراهم يؤمنـون بالخرافات وخوارق الأشـياء، فى حين نجد أن بعـض التجار والاقتصاديين وغيرهم ممن لم ينالوا قسـطا كبيرا من التعليم، يديرون تجاراتهم وأعمالهم ومختلف شئون حياتهم بمنتهى العقل والحكمة والتفكير العلمى السليم.

وهو القائـل أيضا فى كتابه حول «التفكـير العلمى»: ليس التفكير العلمى هو تفكير العلماء بالضرورة، فالعالم يفكر فى مشكلة متخصصة،

هــى فى أغلب الأحيان منتمية إلى ميدان لا يســتطيع غير المتخصص أن يخوضــه، بل قد لا يعــرف فى بعض الحــالات أنه موجــود أصلا... أما التفكير العلمى الذى نقصده فلا ينصب على مشكلة بعينها، أو حتى على مجموعة المشــكلات المحددة التى يعالجهــا العلماء، ولا يفترض معرفة بلغة علميــة أو رموز رياضية خاصة، ولا يقتضى أن يكون ذهن المرء محتشدا بالمعلومات العلمية أو مدربا على البحث العلمى المؤدى إلى حل مشكلات العالم الطبيعى أو الإنسانى. بل إن ما نود أن نتحدث عنه إنما هو ذلك النوع من التفكير المنظم، الذى نستخدمه فى شئون حياتنا اليومية، أو فى النشاط الذى نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة، أو فــى علاقاتنا مــع الناس ومع العالم المحيط بنا. وكل ما يشــترط فى هــذا التفكير هــو أن يكون منظما، وأن يبنى علــى مجموعة من المبادئ التى نطبقها فى كل لحظة دون أن نشــعر بها شــعورا واعيا، مثل مبدأ استحالة تأكيد الشىء ونقيضه فى آن واحد، والمبدأ القائل إن لكل حادث سببا، إنه من المحال أن يحدث شىء من لا شىء.

وقد تناول الدكتور زكريا بالشــرح والتحليل قضايا ومســائل علمية كثيرة، فى كتابه الرائع الذى طبع عدة مرات متتالية فى فترة وجيزة، وهــو كتاب «التفكير العلمى»، ومن هذه القضايا التى عالج كلا منها فى فصــل قائم بذاته: سمات التفكير العلمــى، وعقبات فى طريق التفكير العلمــى، ثــم تحدث عن «المعــالم الكبرى فى طريق العلــم»، ثم تناول

العلاقة بين «العلم والتكنولوجيا» ، ولم ينس أن يعطينا لمحة عن العلم المعاصر» ، ثم تناول أيضا «الأبعاد الاجتماعية للعلم المعصر» ثم تحدث قبل خاتمة الكتاب عن معالم «شخصية العالم» وما ينبغى أن تتمتع به من عناصر أخلاقية، كالروح النقدية، والنزاهة، والحياد، والثقافة بمفهومها الواسع، إلى غير ذلك من عناصر وسمات.

من مؤلفاته الفلسفية والفكرية

قدم الرجل للمكتبة العربية فى دائرة تخصصه (الفلسفة) طائفة من الكتب المهمة تأليفا وترجمة. فمن الكتب التى ألفها فى هذا المجال: «نيتشه» و«نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان» ، ثم كتاب عن الفيلسوف الهولندى «اسبينوزا» وقد نال عنه جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية لعام ١٩٦٤ ، ومنها أيضا كتاب «الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى».

كما قدم لنا أيضا لونا آخر من الكتب التى تعالج وتناقش مشكلات تخص مجتمعنا العربى، والمصرى على وجه الخصوص ومنها كتابه: «الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة» ، وكتاب «كم عمر الغضب؟» ردا على كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل: «خريف الغضب». ومنها أيضا كتاب «خطاب إلى العقل العربى» وهو مجموعة من مقالاته التى نشرها بمجلة «العربى» الكويتية. كما قدم لنا أيضا كتابا بعنوان «آفاق الفلسفة» ، وهو عبارة عن طائفة من المقالات

والفصول التى كتبها حول الفلسفة وموضوعاتها. ونشرها فى بعض المجلات الثقافية والفلسفية على فترات متباعدة. كما ألف الرجل كتابا صدر عام ١٩٧٨ عن الفيلسوف «هربرت ماركيوز» وفلسفته، والذى ظل غفلا لا يدرى به أحد، حتى فتن الشباب بفلسفته. نظرا لما ألمَّ بالعالم من ظروف سياسية واجتماعية. فجاءته الشهرة فى أواخر حياته. وقد ألف الرجل كتابا حول «العرب والنموذج الأمريكى»، نرجو أن نعرض له قريبا.

أما الكتب المُترجمة فقد انتقاها بعناية فائقة ومنها: «المنطق وفلسفة العلوم» للكاتب بول موى (فى جزءين)- «الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام» (فى مجلدين) -- «نشأة الفلسفة العلمية» - «جمهورية أفلاطون»، وقد تجاوز فى هذا الكتاب الأخير حدود الترجمة إلى تقديم الكتاب وعرضه وتحليله ونقد بعض ما جاء فيه. كما ترجم أيضا كتاب «الفن والمجتمع عبر التاريخ» (فى مجلدين)، وقدم لنا أيضا كتاب «العقل والثورة» لهربرت ماركيوز، الذى عرف فى أواخر الستينيات من القرن الماضى بفيلسوف الشباب.

أما كتاب ج. برونوفسكى المهم جدا فهو بعنوان: The Identity of Man إلا أن الدكتور زكريا قد آثر أن يجعل عنوانه فى العربية: «وحدة الإنسان»، ولذلك أسبابه الوجيهة عند المترجم؛ إذ إن كاتبه يرى أنه من الممكن تحقيق وحدة منسجمة متآلفة للإنسان، على الرغم

مـن كل عوامل الانقسـام والانفصام التـى تهدده. فالكتـاب محاولة مفصلة لبناء وحدة الإنسـان من وراء كل تعدد تتشـتت فيه فاعليته، ولإثبات أن الإنسـان واحد فى كل ما يقوم به من أوجه النشـاط، سواء أكانت أوجه النشاط هذه علما أم فنا وسواء تأملنا الإنسان على أنه آلة أم على أنه ذات.

وهنـاك أيضـا كتـاب الفيلسـوف الإنجليـزى برتراند راسـل «Wisdom of the West»، الـذى ترجمـه الدكتور زكريا تحت عنـوان: حكمة الغرب (فـى جزءين)، وقد صدر فى سلسـلة «عالم المعرفـة» بدولـة الكويت، وهو عرض تاريخى للفلسـفة الغربية فى إطارها الاجتماعى والسياسى.

كما ترجم الدكتور زكريا أيضا مجموعة من المقالات الفلسـفية تحت عنـوان: «عصر الأيديولوجيـة The Age of Idiology» من تأليف هنرى د. أيكن Henry D. Aiken. والكتاب هو المجلد الخامس فى سلسلة من ستة مجلدات بعنوان «العصور الكبرى للفلسفة الغربية»، وقام بمراجعة الترجمة الفيلسوف المصرى الراحل د. عبد الرحمن بدوى.

ضد التعصب من زاوية فلسفية

وقد تعـرض الرجل لمعالجة ظاهـرة التعصب مبكـرا حيث يقول: التعصـب بوصفه ظاهرة بشـرية خالصة ينتمـى إلى مجال العلاقة بين إنسان وإنسان، يمكن أن يعالج بمناهج وأساليب متعددة، تبعا للزاوية

التى نتأمله منها، ففى استطاعة علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم البيولوجية أن تلقى أضواء كاشفة على ظاهرة التعصب، وأن تساعد الإنسان على إزالة هذه الغشاوة التى أعمت بصيرة البشرية ردحا طويلا من الزمان. ومع ذلك فإن المعالجة الفلسفية لهذه الظاهرة تستطيع أن تكشف عن جوانب خفية وأساسية منها، وأن تزيح النقب عن تلك البناءات الكامنة التى قد لا يتنبه إليها أى علم من العلوم السابقة حين يستنفد طاقته فى معالجة المشكلة من زاويته الخاصة، ومن خلال مفاهيمه ومناهجه المميزة. فهناك إذن أبعاد لمشكلة التعصب أعمق من تلك التى تتناولها العلوم الخاصة. وحين أقول أعمق فلست أعنى بذلك حكما تفضيليا، بل إن كل ما أقصده هو العمق بمعناه الأصلى، لا المجازى، أعنى عمق القاع بالقياس إلى السطح. هذه الأبعاد العميقة التى تكمن وراء كل معالجة علمية خاصة لمشكلة التعصب، تتكشف للتفكير الفلسفى وحده، وربما كان أصلح منهج يتبع فى الكشف عنها هو ذلك المنهج الذى أثبت أنه خصب ومثمر فى معالجة الموضوعات الإنسانية على وجه التخصيص، وأعنى به المنهج الجدلى.

اهتمامه بفن الموسيقى

والرجل على هذا - كما يقول أحد الذين كتبوا عنه فى حياته وهو لم يتجاوز بعدُ الثلاثين من عمره إلا ببضع سنين - مزيج شفاف من عناصر بالغة العذوبة والعمق والبساطة والصدق، يدل على ذلك

اهتمامه البالغ بالجانب الفنى والموسيقى على وجه الخصوص. فقد كان الرجل ذواقة للموسيقى الكلاسيكية الرفيعة، وقد لفت نظرى أن آخر ما قرأته له فى صحيفة «الأهرام» قُبيْل وفاته بعدة أسابيع. مقال صغير ينحو فيه باللائمة على معدى ومقدمى البرامج الموسيقية فى إذاعة «البرنامج الثقافى»، لكونهم يفرضون مقطوعات لنفر من أوساط الموسيقيين، ليسوا فى عبقرية واقتدار بيتهوفن أو موتسارت أو فاجنر؛ الذين عرفهم وأحبهم من خلال أعمالهم العبقرية فى التأليف الموسيقى الراقى، فقد كان الرجل مولعا بالموسيقى الكلاسيكية. وهو فى هذا يشبه نيتشه، الذى ألف عنه أول كتبه، ومثل عالمنا وأديبنا الفنان الدكتور حسين فوزى، مؤسس «البرنامج الثقافى»، الذى كان يُعرف أول نشأته «بالبرنامج الثانى». وقد ألف الدكتور زكريا كتابين حول الموسيقى والتذوق الموسيقى هما: «التعبير الموسيقى» وظهرت طبعته الأولى فى ديسمبر من عام ١٩٥٦، وهو كتاب ثقافى تمتزج فيه خبرة المؤلف الموسيقية ودراسته الفلسفية. فضلا عن اهتماماته السيكلوجية، فيتحدث فيه عن طبيعة الفن الموسيقى من حيث إنه لغة وتعبير عن الفكر والوجدان فى آن واحد. أما الكتاب الثانى فقد ظهر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية وكان بعنوان «مع الموسيقى: ذكريات ودراسات» عام ١٩٧١. كما ترجم الرجل كتابا بعنوان «الفلسفة وفن الموسيقى».

رحم الله الأستاذ الدكتور فؤاد حسن زكريا، الذى جمع إلى جانب الفلسفة ثقافة موسوعية شاملة واهتماما بقضايا مجتمعه العلمية والسياسية، فضلا عما كان يتمتع به من ذوق موسيقى رفيع، ولئن غيبه الموت عن دنيانا يوم الخميس الموافق الحادى عشر من مارس ٢٠١٠، فسيبقى قيمة علمية رفيعة. وقامة فكرية وثقافية شامخة، ما بقى الفكر وبقيت الثقافة.

❑❑❑